سلسلة حياة
الرسول وأهل بيته (ع)

الإمام موسى الكاظم (ع)



دار المحجة البيضاء

في جوفِ الليلِ جلسَ المنصورُ يرتجفُ، وبينَ يديهِ شمعةٌ وكتابٌ، دخلَ عليه (أبو أيوب الخوزي) فرمى إليهِ الكتابَ قائلاً:

ـ «هذا كتابٌ من (محمد بن سليمان)، يُخبرنا أنّ (جعفر بن محمد) قد ماتَ».

صمتَ طويلاً ثمّ قالَ:

ـ «أكتب إليهِ، إنْ كانَ قد أوصَى إلى رجلٍ مُعينٍ فقدمهُ، واضربْ عنقَهُ».

وما لَبثَ أن جاءَهُ الجوابَ بعد حينٍ بأنّ الإمامَ (ع) قد أوصى إلى خمسةٍ أحدهُمْ المنصور، فضلاً عن (محمد بن سليمان) والي المدينةِ و(عبد الله وموسى) ولديه، وزوجتهِ (حميدة).

أصيبَ المنصورُ بالخيبةِ والإحباطِ، كانَ قد ظنّ أنّهُ وبقتلِ الإمام (ع) قد أبعدَ الخطرَ عنْ دولتِهِ. وها هوَ الإمامُ يزيدُ منْ تعقيدِ الأمورِ عليهِ، سقطَ في اليأسِ، وشعرَ بأنّ الإمامَ قد هزمهُ حتّى بموتِهِ.

عرفَ الصادقُ (ع) بنيّةِ المنصورِ في قتلِ وصيهِ. فأشركَ هؤلاءِ وبضمنِهِم المنصور. ليقطعَ السبيلَ أمامه.

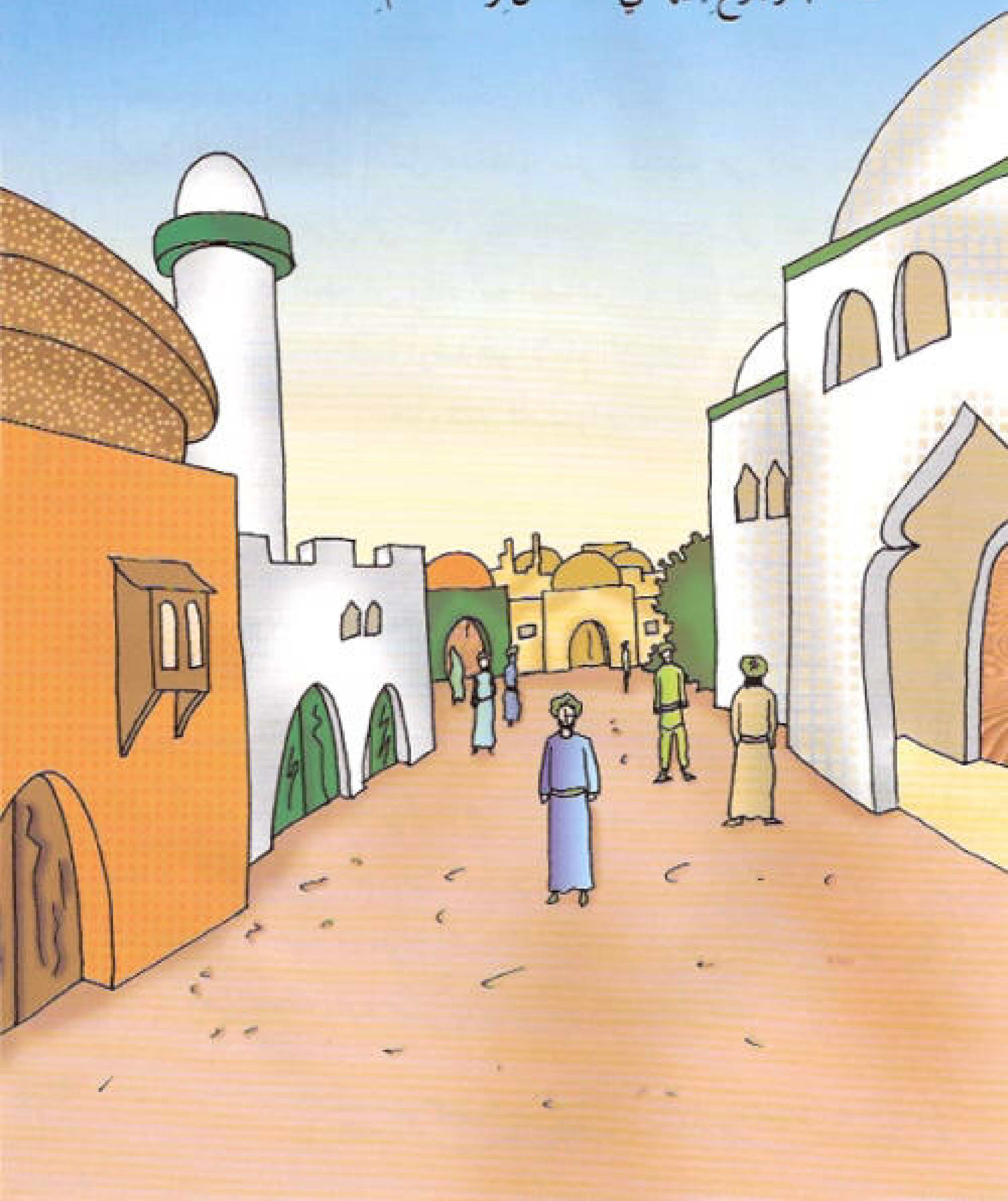
كانَ الوجهُ العباسيُّ قد بدأ ينكشفُ للناس. لقد ظنَّ الكثيرون بأنَّهُ وبمجيءِ بني العباس للحكم. فإنَّ الظُلمَ والاضطهادَ سيُرفعُ عن آل البيتِ. فهمْ أبناءُ عمومةٍ وطالما كانوا يداً واحدةً ضدَّ عدوِّهم المشتركِ «الأمويين». ولكنَّ هذهِ الآمالِ سرعانَ ما اندثَرتْ بمجيءِ المنصورِ.

فعاشَ العلويون ظروفاً لا تقلُّ قسوةً عمّا كانَ في عهدِ الأمويين. ولَمْ يستطعْ الإمامُ الصادقُ (ع) مِنْ أنْ يُصرِّحَ باسم الإمامِ مِنْ بَعْدِه. خوفاً عليهِ منَ القتلِ. وكانَتْ قلّةٌ قليلةٌ من أتباعهِ فقط تسنّى لها معرفةُ الإمامِ وكانوا يدعوهُ بالعبدِ الصالحِ خشيةً عليه منْ بطْشِ المنصورِ.

والعبدُ الصالحُ هو الإمامُ موسى الكاظم (ع) ثالثُ أبناءِ الإمامِ جعفرُ الصادقِ.

وُلدَ بالأبواءِ ما بينَ مكّةَ والمدينةِ في ٧ صفر سنة ١٢٨ هـ. حينما كانت شمسُ الدولةِ الأمويّةَ تشرفُ على الخمود. وتربّى بحجرِ أبيهِ. وأمٌّ فاضلةٌ تُدعى (حميدة). وصفها الإمامُ الصادقُ (ع) بأنّها مصَفّاةٌ من الدَّنَسِ كسبيكةِ الذهبِ. وكانت امرأةٌ جليلةٌ من

أشرافِ العجمِ، عُرِفَتْ بِالفضيلةِ والعلمِ، وكانَ الصادقُ (ع) يُوصي النّساءَ بالرجوعِ إليها في المسائلِ والأحكامِ.



تقلّدَ الإمامُ موسى الكاظم (ع) مقاليدَ الإمامة عام ١٤٨ هـ وله من العمرِ عشرون سنةً. وفي ظلِّ ظروفٍ بالغة الصعوبةِ والتعقيدِ. فالإرهابُ العباسيُّ انصبَّ على المسلمينَ عامةً وعلى البيت العلويِّ خاصةً. ولم يكنْ بالإمكانِ الإعلانُ عن إمامة الكاظم (ع) لعامةِ النّاس. فتفرّقَ النّاسُ مذاهبَ شتّى، فمنهُم من قالَ بإمامة إسماعيلَ الذي توفيَ في حياةِ أبيه، ومنهم من رجعَ إلى ابنه الذي ماتَ بعدَ سبعةِ أشهرٍ من وفاة أبيه الصادق (ع) ولم تنجُ من هذه الفتنة، سوى قلّةٍ مخلصةٍ أرشدَهُم الإمامُ الصادقُ (ع) بالعودة إلى ابنه موسى الكاظم (ع) بعد وفاته. فأسلَمُوا قيادتهُم إليه، ولم يُفْشُوا إمامته بين الناس خوفاً على حياته.

لَمْ ييأس المنصورُ منَ الوصول إلى معرفة الإمام. فأرسلَ الجواسيسَ وبثَّ العيونَ في أنحاءِ المدينة. وعندما تأكّدَ لديه بأنَّ الإمامَ موسى الكاظم (ع) يحظى بتأييدِ أغلبيةِ الشيعة ألقى به في السجن. قضى الإمامُ فترةً في سجن المنصور صابراً على البلاء. كانَ أتباعُهُ خلالَها يحاولون في شتّى الوسائل الوصولَ إليه في سجنِه، لكي يُرْشدَهُم إلى الطريقِ الصحيح في مواجهةِ جورِ السلطة، ومواجهةِ الزندقة التي شاعَتْ في ذلكَ العصرِ. فكانَ الإمامُ ومن سجْنه يقومُ بمهامه الجهاديةِ والعلميةِ.

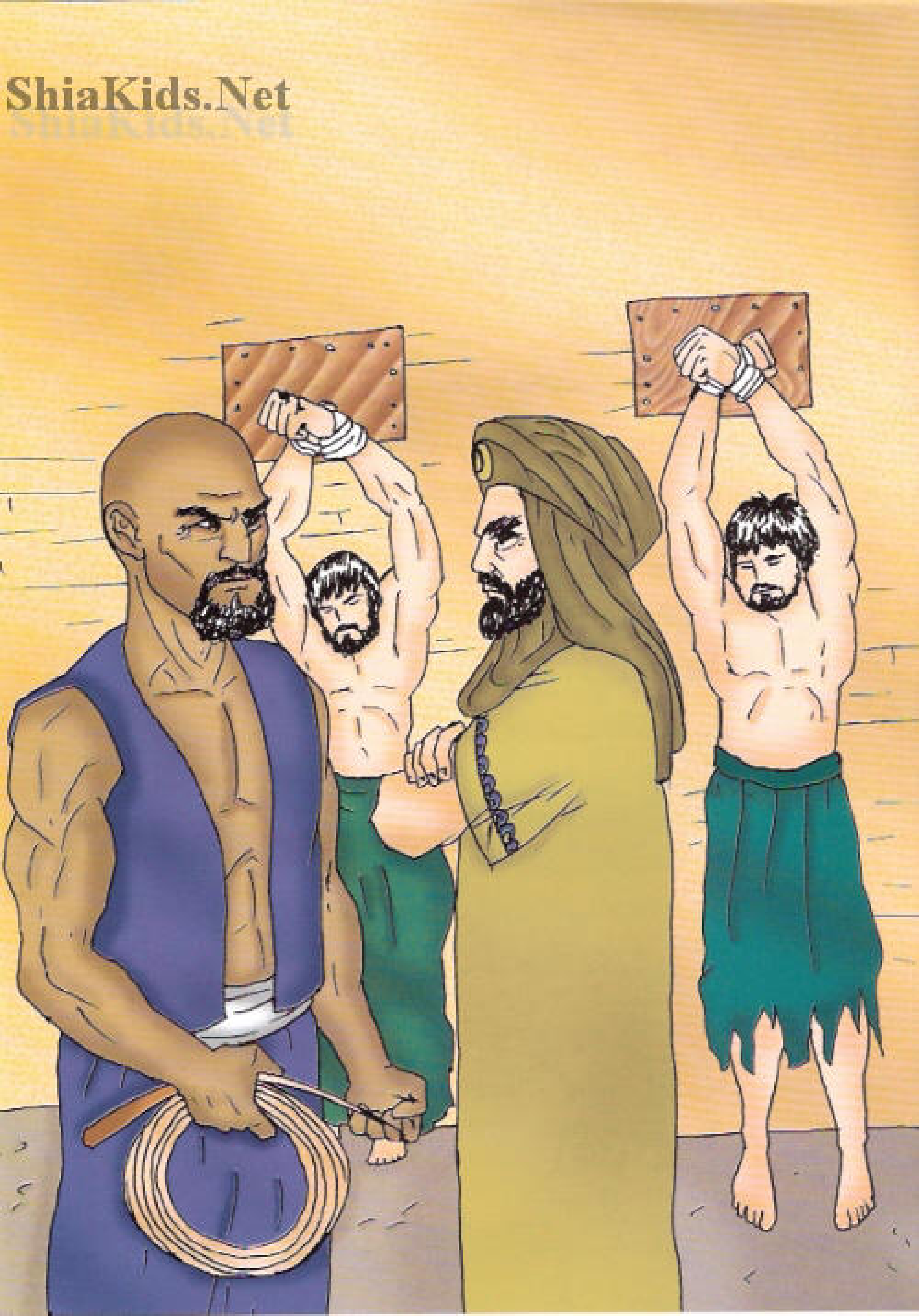
وأخيراً، انفرجَتْ الأمورُ بوفاةِ المنصورِ وتَوَلّى ابنُهُ المهديُّ الحكمَ، الذي لم يتوانَ عن إطلاقِ سراحِ الإمامِ وإعادَتِهِ إلى المدينةِ مُعَزَّزاً مكرَّماً.



عندما وصلَ المدينةَ، استقبلَهُ أتباعُهُ وأهلُها بفرحٍ غامرٍ، وَمِنْ هُناكَ وَاصلَ عَمَلَهُ الدؤوبَ في جامعةِ أبيه وجدّهِ وحَرَصَ على بقائِها واستمرارِ عطائِها. كما بذلَ جُهْداً عظيماً في محاربةِ الاتجاهاتِ الخطيرةِ التي بدأتْ تَعْصِفُ بالمجتمعِ الإسلاميّ، ومحاربةِ الزندقةِ التي انتشرَتْ في عصرِه، كذلكَ محاولةَ إعادةِ النّاسِ إلى الدينِ القويمِ بعدَ أن انتشرَتْ المعاصي والملاهي.

وامتدّتْ هذهِ المرحلةُ الحافلةُ بالجهدِ والعطاءِ، ما يُقاربُ إحدى عشرةَ سنةً من عصرِ المهديّ، الذي امتازَ بنوعٍ من الانفراجِ الطفيفِ الذي خَلّفَ عهدَ المنصورِ الاستبداديّ، لكنْ بعضُ الوشاةِ تَمكّنُوا من قَلْبِ المهديّ عليه وتخويفهُ منه، فأرسلَ مَنْ يَحْمِلُهُ إلى بغدادَ، وأودعَهُ السجنَ في اليومِ التّالي لوصولِه.

لكنّهُ سرعانَ ما عادَ وأطلقَ سراحَهُ وأعادَهُ إلى المدينةِ، بعدما رأى الإمامَ عليَّ بنَ أبي طالب (ع) بمنامِه يوبّخهُ ويتوعدُهُ لسوءِ فعلتِه تلكَ. وبعدَ وفاتِه تولّى مقاليدَ الحكمِ أخيه الهادي، وكانَ عَصْرُهُ شديدَ الوطأةِ على العلويين، فضيّقَ عليهم وأرسلَ أشرافَهُم إلى السجنِ، وكانَ قد عقدَ العزمَ على حَبْسِ الإمامِ الكاظمِ (ع)، لكنّه توفّي قبلَ ذلكَ.



وجاءَ من بعدهِ الرشيدُ، الذي سارَ على نهجِ أسلافهِ في الضغطِ وتهديدِ العلويين، وأمرَ واليه في المدينةِ في تضييقِ الخناقِ عليهم، ومحاربتهم في أرزاقهم، وسلْبِ متاعِ بيوتهم وحتّى ثيابَ نسائهم. في تلكَ الفترةِ لجأَ الإمامُ(ع) إلى الحذرِ والعملِ السريِّ للحفاظِ على مدرستهِ، وإعدادِ الرجالِ الثقاةِ المخلصين، يبثُّ بهم لمحاربةِ البدَعِ وتعزيزِ دورِ الدِّينِ بالحياةِ، بعدَ أنْ أغرقَ الحُكّامُ العباسيين الدولةَ والمجتمعَ في فوضى العقائدِ ومستنقعاتِ الرذيلةِ والفسادِ.

أدركَ الرشيدُ، بأنَّ للإمامِ(ع) منزلةً تكادُ تفوقُ منزلتهُ في العالمِ الإسلامي، وأنّهُ خليفةٌ فعليٌّ وإنْ كانَ لا يتمتعُ بالسلطاتِ التي يتمتعُ هو بها. وكان لـ(يحيى البرمكي) دورٌ في ذلكَ، فقرّرَ سجْنَهُ، وأرسلَ مَنْ يعتقلَهُ وهو قائمٌ يُصلّي، فضجّتِ المدينةُ من التذمرِ، وانخرطَ النّاسُ في البكاءِ خوفاً على مصيرِ الإمامِ.

أرسلَ الرشيدُ به، إلى سجنِ (عيسى بن جعفر المنصور) في البصرةِ، وبقيَ الإمامُ في سجنهِ، وكانَ دائمُ العبادةِ، كثيرَ الدعاءِ. ولم يرغب الوالي في إبقاءِه في سجنهِ طويلاً فكتب إلى الرشيد:

ـ «واللهِ ما رأيتُ منهُ شراً، وما سمعتهُ يدعو علينا مرةً، بل واللهِ ليسألَ اللهَ الرحمةَ والمغفرةَ، وقد جهدتُ نفسي أن آخذ عليه حجةً فلم أقدر، فخذهُ مني أو سلّمهُ إلى من شئتَ وإلاّ أخليتُ سبيلَه».

ShiaKids.Net

ولَمْ يقُمِ الرشيدُ بإخلاءِ سبيلِه، بل
أرسلَهُ إلى سجنِ «الفضل بن الربيع».



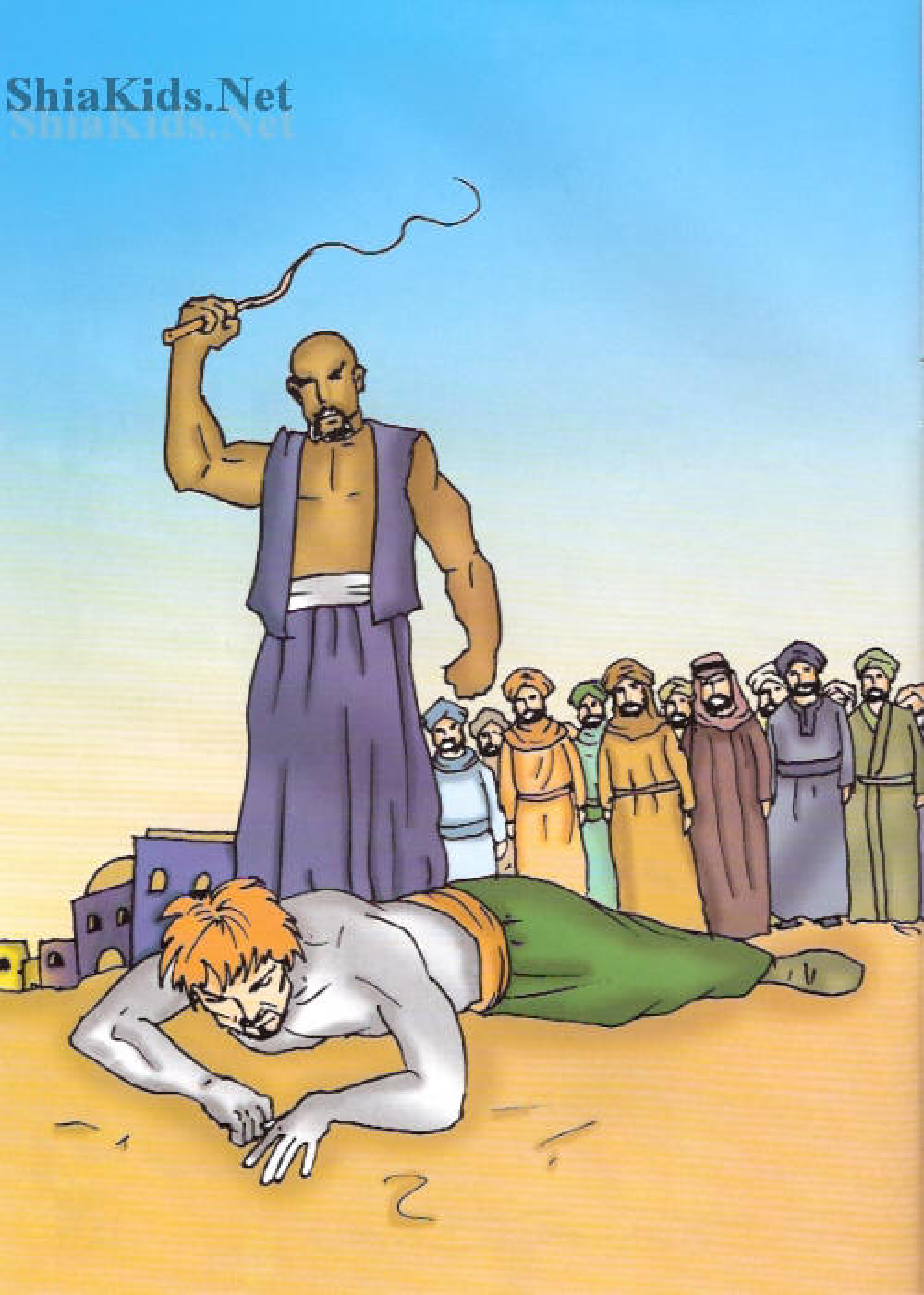
ShiaKids.Net

وفي سجن الفضل قضى الإمام(ع) أيامَهُ ولياليهِ في العبادةِ وتلاوةِ القرآنَ. وكانَ لكظمِ غيظهِ، وإحسانهِ وصفحهِ عن المسيئين إليهِ، أثرهُ في تغيرِ معاملةِ سجّانيه. وأدركَ الرشيد حجمَ الورطةِ والمأزقِ الذي وضعَ نفسهُ فيه. فشاورَ (يحيى بن خالد البرمكي) فنصحهُ بإطلاقِ سراحِ الإمامِ مقابلَ اعتذارهُ.

رفضَ الإمامُ تلكَ الشروطَ المهينة، وفضّلَ السجنَ على نيلِ حريّةٍ مشروطةٍ ومُذلّةٍ. وكتبَ إليهِ من سجنهِ:

ـ «لن ينقضي عليَّ يومٌ من البلاءِ، إلا وينقضي عنكَ يومٌ من الرخاءِ، حتّى نفنى جميعاً إلى يومٍ ليس له انقضاء، وهناك يخسرُ المبطلون».

وعندما يئسَ الرشيدُ منْ إخضاعهِ، حوّلَه إلى سجنِ (الفضل بن يحيى) وأمرهُ بقتلهِ. رفضَ الفضلُ رفضاً قاطعاً قتلَ الإمام وتحمّلَ وزرَ دمهِ، فغضبَ الرشيد وأمرَ بجلدهِ على مرأى من النّاس.



وشعرَ (يحيى بن خالد) بأنَّ الإهانةَ التي تعرَّضَ لها ابنهُ كانَتْ بسببِ الإمامِ(ع). ولكي لا يخسرَ نفوذَهُ، ولإعادةِ الخطوةِ التي كانَ يتمتعُ بها ابنه لدى الرشيدِ، وضعَ خطته لقتل الإمام. وسعى بها إلى الرشيدِ، فقام بإقناع (السندي بن شاهك) بدسِّ السمِّ بطعام الإمام(ع). قَبِلَ (ابن شاهك) القيامَ بالمهمة بعدَ أن رفضَ الآخرون ذلك. فقامَ بتسميمه وبعدَ ثلاثةَ أيامٍ من الأوجاعِ والآلامِ المبرحةِ وتقطُّعِ أحشائه بفعلِ السمِّ توفيَ الإمامُ الكاظمُ(ع) في ٢٥ رجب سنة ١٨٣ للهجرة.

ولتفادي نقمةَ النَّاسَ، وُضِعَتْ جنازةُ الإمامُ(ع) عند الجسرِ، وأمرَ (السندي ابن شاهك) غلمانَهُ بالمناداةِ عليه وإفهامِ النَّاسِ بأنَّهُ قد ماتَ ميتةً طبيعيةً.

وعندما سمعَ (سليمان بن المنصور) عمّ الرشيد، وكانَ على الجانبِ الآخرَ من النهرِ، غضبَ لتلكَ الطريقةَ غيرِ اللائقةِ لتشيعِ جنازةِ ابن رسول الله(ص) وأمرَ غلْمانَهُ بانتزاعِ الجنازةِ من أيدي غلمانِ السنديِ، حيثُ شيَّعهُ بمهابةٍ إلى مثواهِ الأخيرِ بمقابرِ قريش في بغداد.

فسلامٌ عليه يومَ ولد ويومَ ماتَ ويومَ يُبعثُ حياً.

